كان السلطان علاء الدين محمد قد اجتذبته ثروة الصين ، فطمع في الاستيلاء على هذا البلد وضمه إلى أراضي دولته ، لكن جنكيز خان سبقه إلى ذلك ، وكانت رغبته في التحقيق من صدق هذه الانباء ، والحصول على معلومات دقيقة عن قوة المغول ، فأرسل سفارة إلى جنكيز خان عقب سقوط ، فاستقبلهم بمظاهر العطف ، واخبرهم بأنه يعد محمد خوارزمشاه سيد المغرب في الوقت الذي يعد نفسه سيد المشرق ، وانه يرغب في إحلال السلام بينهما ، وان يتمتع التجار بحرية الانتقال من بلد إلى بلد آخر .

وتنفيذاً لهذه السياسة التي رأى جنكيز خان انتهاجها مع السلطان محمد خوارزمشاه ، ارسل سفارة وقافلة تجارية إلى الغرب رداً على سفارة الزعيم الخوارزمي على رأسها ثلاثة من التجار المسلمين هم محمود الخوارزمي وعلي خواجة البخاري ، ويوسف كتكا الاتراري ، وحملهم الهدايا الثمينة . وفي ربيع عام 615ه/1218م ، وصل هؤلاء التجار إلى بلاط السلطان في بخارى ، وفشل حملته لاسقاط الخلافة العباسية .

عد السلطان الخوارزمي المعتد بنفسه ان الرسالة تحمل في طياتها التهديد والوعيد ، وشعر بالاهانة عندما طلب منه جنكيز خان ، بوصفه خاناً على الشعوب المغولية والتركية التبعية له ، غير ان كياسة محمود الخوارزمي الذي اجتمع بالسلطان بددت حال الغضب عنده ، واعادته إلى حالته الطبيعية من الهدوء والاتزان ، فقبل ان يعقد معاهدة تحالف وصداقة مع جنكيز خان .

سر جنكيز خان بالمعاهدة ، وراح يعمل على تأمين الطرق التجارية بين شرق آسيا وغربها ، وإخضاع القبائل التي كانت تقطعها وتسلب ما يحمله التجار ، وتزويد الطرق الرئيسية بحراسة دائمة لتأمين وصول التجار سالمين إلى المعسكر المغولي .

ان الاطماع السياسية لمحمد خوارزمشاه ، المتمثلة بالقضاء على المغول ووراثتهم ، بدل هذه العلاقة الطيبة بعلاقة عدائية . فهو عندما ارسل السفارة إلى جنكيز خان كان هدفه الاستطلاع ، ولم يكن راغباً بالعلاقات التجارية معهم ، وفي ظل ذلك قام ثلاثة من التجار الخوارزميين من سكان بخارى برحلة إلى ممالك المغول للتجارة فأكرمهم جنكيز خان ، وارسل معهم قافلة تحمل امتعة مختلفة لتصحبهم إلى ممالك السلطان لتبادل التجارة هناك ، وبلغ عدد افراد القافلة اربعمائة وخمسين رجلاً بقيادة أربعة من كبار تجار المسلمين ، كلف جنكيز خان احدهم بحمل رسالة خاصة إلى السلطان ، وعندما وصلت القافلة إلى اوترار على الساحل الغربي لنهر سيحون ، اول مناطق نفوذ السلطان ، لكن ينال خان حاكم المدينة وابن خال السلطان ، قتل جميع افراد البعثة التجارية بتهمة انهم جواسيس ، وسلب البضاعة .

لم يكن بوسع جنكيز خان ان يتجاهل هذه الإثارة ، غير ان ما اتصف به من الاتزان والتعقل ، حمله ان يرسل سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال ، إلى محمد خوارزمشاه للاحتجاج ، وطلب منه تسليمه حاكم اوترار ، لكن السلطان رفض الطلب ، وتمادى حين اقدم على قتل احد افراد السفارة ، ولم يطلق سراح زميليه ، وهما من المغول ، الا بعد ان حلق لحيتيهما ، فقطع بذلك كل امل في التفاهم مع المغول ، واضحت الحرب بين الطرفين امراً لا مفر منه .

جرت استعدادات الحرب من جانب جنكيز خان بعناية تامة . فقد كان فيما يبدو ، يغالي في تقويم الطاقة العسكرية للسلطان الخوارزمي ، ولعل مرد ذلك يعود إلى انه استقى معلوماته عن الدولة الخوارزمية من التجار المسلمين الذين كانوا يظهرون السلطان محمد بأقوى مما كان عليه في حقيقة الامر .

وضع جنكيز خان خطة عسكرية تقضي بدخول بلاد ما وراء النهر من أربعة محاور ، والانتشار في أوسع رقعة ممكنة ، فقسم قواته من اجل ذلك إلى أربعة جيوش .

تحركت الجيوش المغولية أواخر عام 615ه/1218م في طريقها إلى بلاد ما وراء النهر . ولما لم يتمكن السلطان محمد خوارزمشاه من معرفة المكان الذي ستتوجه اليه ، وزع جيشه البالغ اربعمائة الف جندي على المدن الهامة مثل بخارى وسمرقند ، وعلى القلاع الرئيسية المنتشرة على طول نهر سيحون وممرات فرغانة في الغرب ، وقد اضعف هذا التوزيع قدرة الجيش الخوارزمي على الرغم من تفوقه العددي .

كانت مدينة اوترار اول مدينة هاجمها المغول ، فقد ضرب الجيش الأول حصاراً مركزاً عليها . وكان يدافع عن المدينة حامية مؤلفة من خمسين الف جندي بقيادة ينال خان بالإضافة إلى عشرة الآف بقيادة قراجة ، حاجب السلطان محمد . وعلى الرغم من ان هذه القوة المدافعة على جانب كبير من الكفاءة القتالية والقدرة على الصمود ، الا ان الذعر الذي استولى على السكان حين ظهر المغول ، فضلاً عن نشوب الخلاف بين القادة بشأن استمرار المقاومة .

استمر حصار المدينة خمسة اشهر تخللته مناوشات بين الطرفين كانت عنيفة احياناً ، غير ان المغول ما لبثوا ان استولوا عليها عنوة ، فنهبوها وقتلوا جميع سكانها انتقاماً . واحتمى ينال خان بقلعتها ، ولما وجد نفسه وحيداً ومحاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سطح احد المنازل ، فتبعه جنديان مغوليان ، وهو لا يملك ان يدافع عن نفسه الا بقذفهما بالحجارة ، إلى ان وقع في ايديهما . وقاده الاخوان جغتاي واوكتاي إلى معسكر ابيهما امام سمرقند ، فنكل به ، وامر بأن تصهر الفضة وتسكب في عينيه واذنيه حتى مات بهذه الطريقة الشنيعة .

توجه الجيش الثاني بقيادة جوجي إلى المدن الواقعة على نهر سيحون لاقتحامها وتطهير الطرف الشمالي من النهر ، فأستولى على سغناق عنوة واتجه صوب مدينة جند ، احدى الثغور الهامة على هذا النهر ، واستولى في طريقه على كثير من الحصون والمواقع ، وسقطت المدينة في صفر عام 617ه/نيسان 1220م ودمروها وقتلوا الذين عارضوا الاستسلام .

اندفع الجيش الثالث إلى القسم الأعلى للنهر للاستيلاء على منطقة فرغانة ، فحاصر مدينة بنكت الواقعة على هذا النهر ، مدة ثلاثة أيام ، ثم دخلها صلحاً بعد استسلام سكانها ، فقتل قادته كل الذين حملوا السلاح ضد المغول ، واصطحبوا أصحاب المهن والحرف والعلماء للاستفادة منهم .

تلقى هذا الجيش تعزيزات عسكرية قبل ان يزحف نحو مدينة خجندة الواقعة إلى الجنوب من بنكت . وكانت هذه المدينة قد أقيمت في مكان يتفرع عنده نهر سيحون إلى فرعين ، وقد أبدت مقاومة غير متوقعة بفعل موقعها الطبيعي من جهة وشجاعة حاكمها الخوارزمي تيمور ملك من جهة أخرى ، ولكن بسبب الضغط الشديد اضطر إلى مغادرة المدينة مع الف من اتباعه ، وتوجه إلى خوارزم ومنها توجه إلى خراسان ، فأنضم إلى قوات السلطان في شهرستان بالقرب من نسا ، وسقطت المدينة في ايدي المغول .

اما الجيش الرابع بقيادة جنكيز خان من اوترار جنوباً إلى بخارى ، فأستولى في طريقه على بعض المدن ، منها زرنوق إلى الشمال من بخارى ، وغير اسمها إلى قتلق بالق ، أي المدينة السعيدة ، ونور ، وضرب حصاراً مركزاً ، وقد دافعت عنها حاميتها المؤلفة من عشرين الف جندي .

بعد ثلاثة أيام غادرت الحامية المدينة فخرج افرادها تحت قيادة اينانغ خان ، وشقوا طريقهم وسط القوات المغولية ، لكنهم تعرضوا للمطاردة ولم ينجو منهم سوى قائدهم مع ثلة قليلة ، دخل المغول المدينة في 4 ذي الحجة عام 616ه/10 شباط 1220م ، واستمرت القلعة بالمقاومة لمدة اثني عشر يوماً ولم يزيد عدد افراد حاميتها على اربعمائة جندي .

توجه جنكيز خان بعد الاستيلاء على بخارى نحو سمرقند قصبة بلاد ما وراء النهر ، وساق معه عدداً كبيراً من الاسرى من سكان بخارى لتسخيرهم في الاعمال العسكرية .

كان السلطان محمد الخوارزمي يعلق أهمية خاصة على الدفاع عن سمرقند ، كبرى مدن بلاد ما وراء النهر ، فترك فيها جيشاً جراراً ، بقيادة طغاي خان ، بلغ تعداده مائة وعشرة الاف مقاتل ، كان منهم ستون الفاً من الاتراك وخمسون الفا من التاجيك ، ومعهم عشرون فيلا ، وكانت المدينة جيدة التحصين وحولها سور محكم . وعلم جنكيز خان ، وهو بأوترار .

عند وصول جنكيز خان إلى المدينة ضرب حصاراً حولها ، وفي اليوم الثالث من الحصار اشتبكت قوة خوارزمية مع القوات المغولية ، وتمكن المغول من إبادة هذه القوة وعددهم ما يقارب سبعين الفا .

دخل المغول في 10 محرم 617ه/17 اذار 1220م ، الا انهم لم يراعوا العهود والمواثيق . فأمر جنكيز خان السكان بالخروج من المدينة التي تعرضت للنهب .

ركز جنكيز خان جهوده ، بعد ان استولى على بلاد ما وراء النهر ، على مطاردة السلطان محمد الخوارزمي ، فأرسل جيشاً للقبض عليه يتكون من عشرين الف جندي بقيادة جيبي وسوبوتاي . ففر السلطان هارباً وبدا عليه اليأس ، فقصد نيسابور ثم توجه نحو العراق العجمي وبسطام ، واجتاز الري ، ثم فر إلى قلعة فرزين ، واختار السلطان اللجوء إلى مازندران ، ثم التجأ إلى احد جزر بحر قزوين ، واستدعى ابنه جلال الدين منكبرتي وعينه خلفاً له ، ومات في الجزيرة عام 617ه/1220م تاركاً لابنه ملكاً غير واضح المعالم .

تقدم جنكيز خان في عام 617ه/1220 صوب ترمذ ، واستولى عليها بعد حصار ، وقتل جميع سكانها ، وامضى شتاء 617-618ه/1220-1221م على ضفاف نهر جيحون ، وارسل ما يزيد على مائة الف جندي بقيادة ثلاثة من أبنائه هم جوجي وجغتاي واوكتاي ، لاجتياح العاصمة الخوارزمية جرجانية ، الواقعة قرب دلتا نهر جيحون على بحر آرال ، واقتحمها المغول بعد قتال في صفر عام 618ه/نيسان 1221م ، فقتلوا كل الرجال وسبوا النساء والاطفال .

اخضع جنكيز خان مدينة الطالقان وقتل سكانها لانهم قاوموه ، وعلم وهو فيها بأن السلطان جلال الدين منكبرتي وصل إلى غزنة وهو مرابط فيها ، فسار اليه وحاصر في طريقه قلعة باميان واقتحمها وانتقم من سكانها بقتلهم جميعا ، ثم تلقى خبر انتصار جلال الدين منكبرتي على احدى فرقه العسكرية قرب مدينة بروان شمالي غزنة ، فأرسل جيشاً على وجه السرعة يقدر بثلاثين الف جندي ، بقيادة شيكي كوتولا ، لحرب السلطان الخوارزمي . اشتبك الطرفان بمعركة قوية استمرت يومين اسفرت عن انتصار السلطان وتشتت الجيش المغولي اثر المعركة التي تعد اكبر انتكاسة اصابت المغول في هذه الحرب ، وانتقم الخوارزميون من المغول انتقاماً شديداً .

وبعد دخول جنكيز خان مدينة غزنة بعد ا ناخلاها السلطان وعين عليها حاكماً من قبله ، ثم تعقبه ، وحين وصلت طلائعه إلى نهر السند كان السلطان يعد السفن لعبور النهر ، فأضطر إلى خوض معركة لم يكن مستعداً لها ، وذلك في شوال 618ه/تشرين الثاني 1221م ، ومع ذلك نجح في ان يشق له طريقاً وسط الجموع المغولية ، فعبر النهر ويمم وجهه صوب الهند مع عدد من اتباعه ، ، وانتقم جنكيز خان من سكان غزنة فقتلهم جميعاً باستثناء ارباب الحرف والصناعات ، ودمر المدينة . وبعدها غادر جنكيز خان الأقاليم الغربية في عام 619ه/1222م .